

المريض الإنكليزي.. فيلم الأسئلة الغائرة والانتصار للحب

كاتب رواية الفيلم: خطيرة هي الحقيقة في الوقت غير المناسب



عمل سينمائي يصيب بحمى السؤال وعدوى المصير الغامض

والهويات والأديان، تتلاعب فيهم سخرية الأقدار وسوء الاختيارات والاستجابة لسحر شهواتهم ومفترق أحاسيسهم وجلافة مسؤولياتهم ومعتقداتهم المروسة لعالمهم.

ولعل أبلغ ما يلخص هذه العبئية التي يرصدها الفيلم دون أن يفصح عنها، هو عندما يلتقي في أحد المشاهد الكونت الماسي وكريستين في أحد الفنادق، وتساله عن أسعد لحظات حياته فيجيب "الآن" لتعاود سؤاله عن أتعس لحظات حياته فيجيب ذات الإجابة (الآن) في حلقة مفرغة تمثل مدى سخرية المشاعر والأحاسيس الإنسانية وتأثيرها بالمعتقدات الأخلاقية للفرد. ويكتمل المشهد بسؤال آخر من الكونت الماسي إلى كريستين، ويسألها عن الأمر الذي تكرهه فتجيب "الخيانة" لتبادلها هي نفس السؤال ليجيب "الملكية".



أنتوني مانغيفلا

المخرج اختار الذهاب نحو ما هو أعمق وأكثر جدلاً، وألوهو وضع المسألة الوطنية في الميزان مقابل الحب

نال المريض الإنكليزي جوائز عديدة على المستويين التقني والتمثيلي، وضم نخبة من خبرة الممثلين كالبريطاني رالف فينيسي، في الدور الرئيسي (الماسي) ومعه في الفيلم، في دور كاترين، كريستين سكوت توماس، وهي واحدة من النجمات القليلات في العالم، التي تمثل بعدة لغات. وقامت بدور المرضية "هنا"، الفرنسية جوليت بينوش، إلى جانب الأميركي وليام دافو، والبريطاني كولين فيرث، وغيرهم من القامات السينمائية العالمية. وتجدر الإشارة إلى أنه قد تمت الاستعانة بتقنيين مساعدين وممثلين تونسيين قاموا بأداء مشاهد صغيرة في الفيلم كالفنان هشام رستم.

"المريض الإنكليزي" يصيب بحمى السؤال وعدوى المصير الغامض، جميع من حوله من شخوص وقد أصابته لوعة الحب كحالة خلاص لا بد أن تدفع البشرية ثمنها غالباً، وكذلك يعلمنا صناع هذه الرواية الأسرة، بجناحيها الورقي والسينمائي، أن الإبداع التصاق بوجع الذات البشرية أو لا يكون.

يحترق، لتتخذ مجموعة من البدو، يا لها من ملحمة تتحدى الفكر الجماعي ذي الطابع القوي وتنتصر للفرد في مغامرته الإنسانية بأبعادها الوجودية الواسعة، وليست الأناثية الضيقة.

فيلم "المريض الإنكليزي" يعج بالدلالات والإحالات، دون أن ينتمي إلى السينما الرمزية أو يوغل في الطلاسم والغموض، فالأحداث تنساب في سلاسة ولكن بإدهاش سينمائي يعتمد صدمة الحقيقة وقسوة الواقع وكياسته أيضاً. لتتوقف عند بعض الأحداث التي تمتاز بين المقطع والمشهد في هذه الرواية السينمائية التي يتزاورج فيها البصري مع السردي، ويتكاملان إلى حد التماهي: تبدأ الأحداث بعمل المرضية في حديقة الفيلا واعتناؤها بصحة المريض وغذائه وقراءتها له من كتابه التاريخي لهيروديت، وفي أحد الأيام تفاجأ بدخول رجل مقدم في السن لتكتشف أنه ليس إلا صديق والدها ومعلمها الذي قصدها بعد أن سمع عنها في المدينة، وبينما تغير له ضماد جراح يديه يحكي لها كيف بتر الألمان إبهاميه حينما كان يحاول سرقة كاميرا أحدهم خلال مهمة كلفه بها البريطانيون لخفة يده في السرقة.

وفي صباح يوم ماطر وخلال محاولتها العزف على البيانو الذي اكتشفت وجوده، يقاطعها جندي بريطاني أسمر تصادف مروره مع زميله، ويطلب منها التوقف فوراً لشكها بوجود قنبلة زرعاها الألمان قبل مغادرتهم. يخيم الجندي كيم الأسمر برفقة زميله خارج الفيلا، ليقوموا بتنظيف المبنى من الألغام.

مع المزيد من تفكيك بعض المفردات السينمائية في الحكمة الروائية للفيلم، نتهدي إلى قراءة مواربة تعتمد مبدأ الوحدة والتناقض ضمن حقل دلالي مكتمل العناصر والأركان: مريض إنكليزي ولكنه نمساوي من أصول مجرية، ضمادات وجروح، رسومات وغموض، بيانو والغام، جندي بريطاني من أصل هندي، سريلانكي وكندية، سخي ومسيحية، لص بإبهامين مبتورين، وطني وسارق، طائفة مخبأة في الرمال دون وقود، وقائع تحدث في مصر دون وجود مصريين، بئر دون رهبان، وقود ألماني مقابل خرائط بريطانية، محاولة قتل على شكل انتحار.. وهلم جرا من الشيفرات التي تجعل الفيلم أشبه بأحجار ومكونات لعبة المكعب الملون المعتمد على البعثة وإعادة ترتيب الألوان وتصحيحها ومن ثم إعادة بعثتها من جديد.

وفي هذا الصدد يقول الناقد السينمائي عبدالرحمن الخوالدة "أنتوني مانغيفلا جعلنا نشهد ملحمة صراع بين كوكبة من البشر متعددي الجنسيات

الفيلم تنوع على قصة حرب طروادة كما وردت في إلياذة هوميروس، حيث تهرب هيلين زوجة مينيلوس ملك إسبرطة مع باريس ابن ملك طروادة، الأمر الذي يؤدي إلى الحرب، وفي فيلم "المريض الإنكليزي"، تخون كاترين كليفتون زوجها العامل في الاستخبارات العسكرية البريطانية مع هنغاري يسلم معلومات الجمعية الملكية الجغرافية إلى العدو الألماني دون أدنى بادرة ندم.

المزاج الشعري والنزق المسرحي حاضران بقوة في ملحمة "المريض الإنكليزي" وهو أمر يبدو متوقفاً من كاتب مثل مايكل أونداتجي، كان قد نشر 13 ديواناً، وقدمت أشعاره على خشبات المسارح في شمال أميركا، وكذلك من مخرج بقامة أنتوني مانغيفلا، في تعدد مواهبه وشغفه بالمسرح والأوبرا.

التقاء عملاقين، هو العنوان الذي يمكن أن يختصر رائعة "المريض الإنكليزي"، فكتما أونداتجي، كان ينتظر مانغيفلا، كي يجهز حتى يكتب روايته، ويحولها له إلى فيلم، وكذلك العكس.

شخصيات مأزومة

شخصية الماسي الملقب بالمريض الإنكليزي، حاضرة بقوة وفاعلية في أحداث الفيلم، للدلالة على حجم الأوجاع والتشوّهات التي خلفتها الحرب، وكذلك الحاجة إلى السلام الذي لا يمكن له أن ينمو إلا بتقدير قيمة الحب كملخص لعذابات البشرية، فمن مبدئي كانه دير مهجور، ودون رهبان، تبدأ الأحداث وشخصية المريض المحورية الماسي في الرواية، بمثابة النول الذي تنسج عليه بقية الشخصيات أفكارها وأحوالها قبل وخلال الحرب، فمن خلال الاعتناء أي قصة حب المرضية الكندية هانا والملازم السخي، نازع الألغام كيب. فعلى الرغم من شفاقة العلاقة بين هذين الاثنين، وتشارك كليهما في الانتصار للحياة (الأولى تضمد الجراح، والثاني ينزع الألغام)، وعلى الرغم من بهجة وروعة انتفاء الفوارق العرقية والدينية بين العاشقين، إلا أن المخرج انتصر للخط الهوميروسي في الحكاية، واختار الذهاب نحو ما هو أعمق وأكثر جدلاً وحساسية، ألا وهو وضع المسألة الوطنية في الميزان مقابل الحرب، وذلك من خلال علاقة الماسي وكاترين أي قصة "الخيانة المشروعة" بمفهومها الأسري الضيق والوطني الأوسع.. وانتصر "المريض الإنكليزي" للحب أمام الحسابات السياسية والعسكرية المعروضة تحت باطلة الوطنية، وهو أمر هام وجريء بل لعل ذلك سر تائق الفيلم ونجاحه من أساسه.

للمخرج أنتوني مانغيفلا، وقام ببطلونه رالف فاينس، جوليت بينوش، كريستين سكوت توماس، وويليام دافو، ونال الفيلم جائزة الأوسكار لنفس العام، في نوع من الترويج والاحتفاء النادرين، وعلى نفس السوية، لتخلف رواية بشقيها الأدبي والسينمائي.

المرجعية الاستلهامية التي بُنيت عليها الرواية هي إغريقية بحتة، تتعلق بصراع القيم، وتنتقل من حرب طروادة للشاعر هوميروس من جهة قصة الحب الرومانسي، ذي الطابع المحمي، والعاير للحروب والعصبيات والسياسات بين إسبرطة وأثينا. كذلك تأسست الرواية على قصة حب شائك وملتبس، يصل حد ملامسة مفهوم "الخيانة الوطنية والزوجية"، وذلك أثناء الحرب العالمية الثانية التي كانت تدور رحاها بين جيشي المحور والحلفاء.

أما تفاصيل الحكاية فشديدة التعقيد والانتباس، ترويه شخصيات متنسكة في مصائرهما وسيرها الحياتية المتقاطعة عبر استخدام تقنية الفلاش باك أحياناً، وسرديّة الكشف عن تطورات الأحداث أحياناً أخرى.

شهرة الرواية التي تُرجمت إلى عشرات اللغات، من بينها العربية بتوقيع أسامة إسبر عام 1997، سبقت الشريط السينمائي الذي أسقط منها بعض التفاصيل التي من شأنها أن تحدث بعض التشويش والإرباك في ذهن المثقفي، ولكن دون أن يهملها أو يغفل عن وضعها في الحسبان ضمن سياق درامي حافظ على وهج الحكاية بطريقة يغلب فيها الجانب البصري على السرد الروائي.

أما من ناحية التناول الدرامي فقد اختار المخرج أنتوني مانغيفلا، خطاً مغايراً عن ذلك الذي ركزت عليه الرواية أي قصة حب المرضية الكندية هانا والملازم السخي، نازع الألغام كيب. فعلى الرغم من شفاقة العلاقة بين هذين الاثنين، وتشارك كليهما في الانتصار للحياة (الأولى تضمد الجراح، والثاني ينزع الألغام)، وعلى الرغم من بهجة وروعة انتفاء الفوارق العرقية والدينية بين العاشقين، إلا أن المخرج انتصر للخط الهوميروسي في الحكاية، واختار الذهاب نحو ما هو أعمق وأكثر جدلاً وحساسية، ألا وهو وضع المسألة الوطنية في الميزان مقابل الحرب، وذلك من خلال علاقة الماسي وكاترين أي قصة "الخيانة المشروعة" بمفهومها الأسري الضيق والوطني الأوسع.. وانتصر "المريض الإنكليزي" للحب أمام الحسابات السياسية والعسكرية المعروضة تحت باطلة الوطنية، وهو أمر هام وجريء بل لعل ذلك سر تائق الفيلم ونجاحه من أساسه.

كانت الرواية البريطانية كاملة شمسي، هي من اختارت طرح رواية "المريض الإنكليزي" للتصويت في جائزة بوكر، ممثلة لحقبة التسعينات، وأعلنت آنذاك أن حيثيات اختيارها لتلك الرواية جاءت لأنها "رواية نادرة تحك جلدك وتجبرك على العودة إليها مراراً وتكراراً، وفي كل مرة تسبب للقارئ مفاجأة أو فرحة جديدة".

حولت "المريض الإنكليزي" إلى فيلم سينمائي يحمل نفس العنوان عام 1996

فيلم "المريض الإنكليزي" لمخرجه البريطاني أنتوني مانغيفلا (1954 - 2008) حصل على جوائز وتكريمات عديدة منها 9 أوسكار عام 1996، مما جعله يصنف بعد عشر سنوات كواحد من كلاسيكات السينما العالمية، وذلك لطابعه الملحمي واتكائه على رواية تحمل نفس الاسم، وحازت على جائزة بوكر العالمية في العام 1992 ألا وهي رائعة الكاتب السريلانكي الأصل مايكل أونداتجي (من مواليد 1943) "المريض الإنكليزي".



حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

تدور أحداث الفيلم في أواخر الحرب العالمية الثانية بمبنى مهجور في إيطاليا حيث تعتني مرضية كندية برجل غامض وغريب الأطوار وقد احترق جسمه كلياً. يُعرف هذا الرجل باسم "المريض الإنكليزي"، فقد الذاكرة ونسي اسمه، ولا شيء يدل على هويته سوى نسخة من كتاب الشاعر الإغريقي هيرودوت، مليئة بالرسومات والكتابات، لكن المرضية تتعلق به وتجد فيه نوعاً من التعويض عن كل الذين فقدتهم. ينضم إليهما في الدير رجلاً ثانياً: لص كندي مبتور الإبهامين عمل جاسوساً لصالح الحلفاء، وملازم مجند من طائفة السيخ، ويعمل في وحدة إزالة الألغام.

يعترف اللص الكندي على شخصية المريض الإنكليزي (الماسي) من خلال كتابه الشهير الذي يلازمه، ويخبر المرضية أنه السبب في قيام القوات الألمانية بقطع إبهاميه، وفي نفس الوقت يبدأ المريض الإنكليزي بتذكر ماضيه شيئاً فشيئاً، وخاصة قصة الحب التي جمعت بينه وبين زوجة زميله كاترين كليفتون، في الجمعية الملكية الجغرافية، بجنوب القاهرة، بعد أن عملا معا لوقت طويل في الصحراء، وعلقا سوية في عاصفة رملية.

مع توالي الأحداث، يتضح أن المريض الإنكليزي ليس إنكليزياً حقاً، وإنما هنغاري، وأنه رحالة شهير ومستكشف يدعى الكونت لازلو دو الماسي. تنمو قصة حب موازية بين المرضية الكندية ومزيل الألغام السخي، وتتقاطع مع ذكريات الماسي وكارافاجيو الذي يتوصل إلى جعل الماسي، يحكي كيفية موت جوفري كليفتون، وكيف نجا من حادثة تحطم الطائرة التي دبرها كليفتون، وكيف أخرج كاترين التي كانت لا تزال حية وحملها إلى كهف السباحين، ثم كيف غادرها عابراً الصحراء ليجلب المعونة، غير أن البريطانيين قضوا عليه ما إن عرفوا اسمه، واقتادوه باعتباره جاسوساً، ثم هرب، وعاد إلى

أسرة على الورق

حظي فيلم "المريض الإنكليزي" بنفس شهرة الرواية الأصلية التي تحمل نفس العنوان، وهو أمر نادر، وقلما يحدث في الأعمال السينمائية التي تناولت أثاراً أدبية نالت الجوائز والتكريمات قبل تحويلها إلى مواد فيلمية في لغة بصرية تقارب وتوازي المكتوب دون أن تقع في فخاخ التفسير والتشخيص، وبالتالي التفسير في إيصال الشحنة الدرامية. وهو أمر غالباً ما يصيب عشاق الرواية بالإحباط عند مشاهدة المادة السينمائية المستوحاة من ذلك الأثر الأدبي الذي قرأه المشاهد مكتوباً بين دفتي كتاب.

كتب رواية "المريض الإنكليزي" الشاعر والمخرج السينمائي الكندي الجنسية والسريلانكي الأصل مايكل أونداتجي، وسرعان ما فاز عمله الأدبي بجائزة بوكر للآداب عام 1992 في بوبليها الذهبي.

وكانت الرواية البريطانية كاملة شمسي، هي من اختارت طرح رواية "المريض الإنكليزي" للتصويت في جائزة بوكر، ممثلة لحقبة التسعينات، وأعلنت آنذاك أن حيثيات اختيارها لتلك الرواية جاءت لأنها "رواية نادرة تحك جلدك وتجبرك على العودة إليها مراراً وتكراراً، وفي كل مرة تسبب للقارئ مفاجأة أو فرحة جديدة".

حولت "المريض الإنكليزي" إلى فيلم سينمائي يحمل نفس العنوان عام 1996

